الفصل الحادى عشر

فى مباحث تتعلق بالفصل قبله

ومن المباحث النكبات الحاصلة للأعيان لا يحملنك قلة من عددنا فى الفصل قبله من العلماء الذين تقلصت عنهم الدنيا على توهم انبساط الدنيا على غالب العلماء أو معظمهم واعتقاد تمتعهم بها فإن لاحصارهم فى العدد المذكور فى الفصل قبله أسبابًا منها إنا لم نذكر من العلماء إلا من زويت عنه الدنيا ولم يترجم بزهد وشدة تقشف ورد للدنيا وإعراض عنها وسقط بذلك طائفة كثيرة مثل الشيخ.

محيى الدين النواوى

يحيى بن شرف بن مرى مع أنه كان لا يأكل إلا أكلة بعد عشاء الأخيرة ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السحر ولا يشرب الماء المبرد ولا يأمل من فاكهة دمشق معللا ذلك بأن الأوقاف والأملاك للمحاجير فيها كثيرة والتصرف لهم لا يجوز إلا على وجه الغبطة والمعاملة فيها على وجه المساقاة وفيها خلاف والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء للمالك وكان لا يدخل الحمام ولم يتزوج ولم يشرب الفقاع ومأكله كعك يابس وتين حوران يأتيه به أبوه وملبسه الثياب المرقعة. توفى سنة ٦٧٦.

ومثل السهرورى

صاحب عوارف المعارف إمام وقته لسانا وحالا وعلمًا وعملا مع أنه عمى فى آخر عمره وأقعد ومات ولم يخلف كفنًا - توفى سنة ٦٣٢.

والحسن بن العباس الرسخى

الأصفهانى مع أنه كان يسمع عليه الحديث وهو فى رثاثة من الملبس والمفرش بحيث لايساوى طائلا كما ذكره ابن كثير فى طبقاته-توفى سنة ٥٦١

ومثل إبراهيم بن إسحاق

ابن بشير أبو إسحاق الخوى أحد الأئمة فى الفقه والحديث وغير ذلك إمام مصنف عالم يقاس بالإمام أحمد شيخ الدارقطنى كان يقول الرجل الذى يدخل غمه على نفسه ولا يدخله على عياله وقد كان بى شقيقة منذ خمس وأربعين سنة ما أخبرت بها أحدا قط ولى عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت به أحدًا أنفق على نفسه وعياله فى بعض المضانات درهما وأربعة دوانيق ونصفا وبعض إليه المعتضد بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها فرجع الرسول يقول له قال لك أمير المؤمنين فرقها على جيرانك فقال هذا شىء لا نجمعه ولا نفرقه إما أن يتركنا وإما أن نتحول من بلده - توفى لتسع بقين من ذى الحجة سنة ٢٨٤ وكغيره من العلماء والأولياء.

ومنها إنا لم نذكر أيضًا من لم ينص على فقره صريحًا أو بلازم واضح وكثيرًا ما يقول المترجمون كان متقللا ويقتصرون عليه فلا أذكره مع الظن بأنه من المستحثين للذكر فى الفصل قبله فمن ذلك (ابن الأنبارى) عبد الرحمن بن محمد بن الأنبارى صاحب أسرار العربية والمصنفات التى تزيد على مائة تصنيف فإنهم قاوا فى ترجمته انقطع للعبادة والعلم صابرًا على خشن العيش والتقلل منه - توفى سنة ٣٧٧ - ومنه (عزيزى بن عبد الملك الشافعى المعروف بشيدلة) صاحب مصارع العشاف فإهم قالوا فى ترجمته كان زاهدًا متقللا من الدنيا - توفى سنة ٤٩٤ - ومنه (المبارك) بن محمد بن عبد الله السوادى الواسطى نزيل نيسابور أحد أركان الفقهاء المكثرين الحافظين للمذهب القوى المناظرة قالوا فى ترجمته كان متجملا قانعًا باليسير ومع ذلك ما ذكرته وغيرهم ممن لم يتضح لى فقره إلا بلازم ضعيف أو عبارة مجمجمة وسقط بذلك طائفة كبيرة - ومنها إنا لم نذكر كل من شد أطرافًا من العلم كيف ما

كان وقعدت عنه الدنيا بل إنما ذكرنا الأعيان وسقط لذلك طائفة كبيرة - ومنها أنى لم أذكر إلا من صرح بفقره أو بلازم فقره الجلى أما من لم يصرح بفقره ولا بغناه ولا يسند إليه تولية منصب ولا تدريس بل ترجموه بالعلم وسيبوه فلم أذكره وفيه بحث لأنه لا يلزم من عدم ذكر الفقر عدم الفقر ولا يقال هو معارض بمثله لأنه لا يلزم من عدم ذكر الغنى عدم الغنى لأنا نقول لكن الترجيح معنا لما أن المؤرخين بصدد ذكر كمالات المترجم حتى أنهم يذكرون تداريس لا يعبأ بها فى بعض التراجم فلو كان لذكر لتوفر الداعية على نقله فلما لم يذكر علم أنه لم يقع وسقط بذلك طائفة كثيرة مثل (ابن الحاجب) أبى عمرو عثمان المالكى المتوفى سنة ٦٤٦ ومثل (ابن عصفور) على بن مؤمن بن محمد العلامة الأشبيلى المتوفى سنة ٦٦٤ ومثل أبى محمد عبد الله (ابن الخشاب) وغيرهم من العلماء الأئمة ومثل (الزمخشرى) ومن نظمه:

خليلى هل تجدى على فضائلى ... إذا أنا لم أرفع على كل جاهل

من الغبن ذو نقص ينال منازلا ... أخو الفضل محقوقو بتلك المنازل

كفى حزنًا أن يرغم العلم والحجا ... بضد زياد طيشه غير عاقل

ومن لى بحق بعد ما وقرت على ... أراذلها الدنيا حقوق الأمائل

كذا الدهر كم شوهاء فى الحلى جيدها ... وكم جيد حسناء المفلد عاطل

ومما شجانى أن غر مناقبى ... يغنى بها الركبان بين القوافل

وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى ... وسارت مسير النيرات رسائلى

وكم من أمال لى وكم من مصنف ... أصاب بها ذهنى محز المفاصل

غنى من الآداب لكننى إذا ... نظرت فما فى الكف غير الأنامل

فيا ليتنى أصبحت مستغنيًا ولم أكن فى خوارزم رئيس الأفاضل
ويا ليتنى مرض صديقى ومسخط عدوى وأنى فى فهامة باقل
فلست بفضلى بالغًا ولو أننى كقس إياد أو كسحبان وائل
وما حق مثلى أن يكون مضيقًا وقد عظمت عند الوزير وسائلى
فلا تجعلونى مثل همزة واصل فيسقطنى حذف ولا راء واصل
فكل امرئ أمثاله عدد الحصا وهات نظيرى فى جميع المحافل
فوقع إلى هذا الزمان فإنه غلامك يجعلنى كبعض الأراذل

ومنها إنا لم نذكر من ترجم بفقر ثم بغنى زائد تغلبيًا لجانب الغنى المتأخر وسقط بذلك أيضًا طائفة. ومنها أن الكتب والزمان لم يساعدا على استيفاء هذا المقام وإعطائه حقه فلعل ما لم نراه أكثر ما وقفنا عليه. ومنها إنا لم نذكر إلا ما وقفنا عليه فى كتاب معتمد وضع للتراجم أما الكتب الأدبية ففيها أشياء كثيرة لم أذكرها. منها ما فى العقد لابن عبد ربه وشرح الزيدونية لابن نباتة. إن أبا الأسود الدؤلى النحوى وسهل بن هارون الملقب بزرجمهر الإسلام والكندى الإمام فى العلوم العقلية الملقب بفيلسوف العرب كانوا فى غاية البخل وفى عدم ذكر أبى الأسود الدؤلى معنى آخر هو جلالته وصيانته عن نسبة البخل إليه. ومنها أنى لم أذكر فى الفصل قبله فى النكبات العارضة للأعيان فقلما خلا عالم أو نبيل من نكبة وأنا أذكر هنا طرفًا لائقًا بمقصودى من ذوى النكبات.

مالك بن أنس

ابن أبى عامر بن الحرث بن غيمان بالغين المعجمة أبو عبد الله الإمام المدنى أحد أئمة الإسلام سعى به إلى جعفر بن سليمان بن على بن عم أبى

جعفر المنصور فدعا به وجرده وضربه سبعين سوطًا ومدت يداه حتى انخلع كتفاه وسبب ضربه أنهم سألوه عن مبايعة محمد بن عبد الله بن حسن وقالوا له إن فى أعناقنا مبايعة أبى جعفر فقال إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين فأسرع الناس إلى محمد فسعى به فضرب لذلك ثم لم يزل بعده فى علو ورفعة كأنما كانت تلك السياط حليا تحلى بها - توفى سنة ١٧٤.

أبو حنيفة

النعمان بن ثابت الفقيه الكوفى أحد الأئمة المتبوعين كان يزيد بن عمر ابن هبيرة الفزارى أمير العراقين فأراده لقضاء الكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية فأبى فضربه مائة سوط وعشرة أسواط كل يوم عشرة أسواط وبقى على الامتناع وسجنه فتوفى بالسجن فى أحد القولين سنة ١٥٠ ببغداد.

الإمام أحمد بن حنبل

أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيبانى المروزى ثم البغدادى استحوذ على المأمون جماعة من المعتزلة وقوّلوه بخلق القرآن فعنّ له بطرسوس أن يكتب إلى نائب بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن فكان ذلك أول الفتنة وكان ذلك آخر عمر المأمون قبل موته بشهور سنة ٢١٨ فلما وصل الكتاب استدعى جماعة من العلماء فامتنعوا فهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم كرهين واستمر على الامتناع أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الحيدسابورى فحملا على بعير متعادلين مقيدين إلى الخليفة عن أمره بذلك ثم جاء الصريخ بموت المأمون فى الثلث الأخير ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولى الخلافة وأن الأمر شديد فرد إلى بغداد فى سفينة مع بعض الأسارى ومات محمد بن نوح فى الطريق وأودع الإمام أحمد السجن ببغداد نحوًا من ثمانية وعشرين شهرًا ثم أحضره المعتصم

فى قيوده وأجلسه فجلس ودعاه إلى القول بخلق القـرآن فامتنع وقال فما قال ذلك ابن عمك رسول الله ﷺ دعا إلى شـهادة أن لا إله إلا الله وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن القـرآن علم الله ومن علم أن علم الله مـخلوق فقـد كفـر اعطونى شيئًا من كتاب الله أو سنة رسـوله حتى أقول به وناظره أحمد بن أبى داود وغيره، وأنكروا الآثار التى أوردها وقـالوا للمعتصم هذا أكفـرك واكفرنا وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب ببغداد يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلى سبيله ويغلب خليـفتين فعند ذلك حمى واشتد غضـبه فأخذ وجيء بالعقابين والسـياط وضربه ضربًا مبـرحًا شديدًا حتى أغمى عليـه وغاب عقله وأمر بـإطلاقه إلى أهله فنقل وهو لا يشـعر ولما شـفى من الضرى بقـى مدة وإبهاماه يؤذيهمـا البرد وكان الضرب فى الخامس والعشـرين من رمضان سنة ٢٢١ وتوفى سنة ٢٤١.

البويطى

يوسف بن يحيى البويطى صـاحب الإمام الشافعى كان الشـافعى يسئل عن الشيء فيحيل علـيه فإذا أجاب قال هو كما أجـاب وقال عنه الشافعى هو لسانى حمل إلى بغداد فى أيام الواثق بالله من مصر وفى عنقه غل وفى رجليه قيد وبـين الغل والقيد سلسلة حديد فـيها طوق وزنتهـا أربعون رطلا وأرادوه على القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن فى قيوده سنة ٢٣١.

البخارى

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل أراد منه خالد بن أحمد الذهلى أن يأتيه فى بيته يسـمع أولاده فأبى وقال «فى بيته يؤتى الحكم» فاتفـق أن جاءه كتاب من محمـد بن يحيى الذهلى من نيسابور بأن البخـارى يقول بأن لفظه بالقرآن مخلوق وكـان قد وقع بين محـمد بن يحيى الذهلى وبين البـخارى فى ذلك

كلام وصنف البخارى فى ذلك كتابه خلق أفعال العباد فأراد الأمير أن يصرف الناس عن السماع من البخارى لم يقبلوا فأمر عند ذلك بنفيه من البلاد فخرج منها ودعا على خالد بن أحمد فلم يمض شهر حتى أمر ابن طاهر بأن ينادى على خالد بن أحمد على أتان وزال ملكه وسجن ببغداد حتى مات فبرح البخارى إلى بلد يقال لها خزنتك - فمات سنة ٣٥٦ نقلته بلفظه من تاريخ ابن كثير.

النسائى

أحمد بن على بن شعيب النسائى صاحب السنن إمام عصره والمقدم على أضرابه رحل الآفاق وأخذ عن الحذاق وكان ينسب إلى شىء من التشيع قالوا دخل دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشىء من فضائل معاوية فقال ما يكفى معاوية أن يذهب رأسًا برأس حتى يروى له فضائل فجعلوا يطعنون فيه حتى أخرج من الجامع فسار إلى مكة فمر بالرملة فسئل عن فضائل معاوية فأمسك عنه فضربوه فى الجامع فقال أخرجونى إلى مكة فأخرجوه وهو عليل - فتوفى بمكة مقتولا شهيدا سنة ٣٠٣.

أبو عمرو

عيسى الثقفى النحوى شيخ سيبويه صاحب كتاب الجامع الذى قيل أن سيبويه أخذه وزاد عليه ما استفاده من الخليل ونسبه إليه أودعه شخص وديعة فنمى الخبر إلى يوسف بن عمر أمير العراقين فكتب إلى نائبه بالبصرة يأمره أن يحمل إليه عيسى بن عمرو مقيدًا فدعا به ودعا حدادا وأره بتقييده فلما قيده قال لا بأس عليك إنما أرادك لتعليم ولده قال فما بال القيد إذًا فلما وصل إليه سأله فأنكر فأمر بضربه فضرب بالسياط توفى سنة ١٤٩ كان كثير الاستعمال للغريب والتقعر فى كلامه وهو القائل افرنقعوا عنى. قال يومًا لأبى عمرو بن

العلاء أنا أفصح من معد بن عدنان فاستنشده أبو عمرو بيتًا فيه بدا بمعنى ظهر وقال له كيف تسنده إلى جماعة الإناث أتقول بدين أو بدان فقال بدين فقال اخطأت ولو قال بدان لأخطأ أيضًا وإنما أراد أبو عمرو تغليطه وإنما الصواب بدون من بدا يبدو إذا ظهر وبدأ يبدأ إذا شرع فى الشىء معنى آخر ذكرت هذا استطرادًا لاشتماله على فائدة.

محمد بن الزيات

أبو جعفر بن عبد الملك وزير المعتصم ثم ابنه هارون الواثق ثم لما مات الواثق أشار هو بتولية ولده وأشار القاضى أحمد بتولية أخيه المتوكل وتم أمر المتوكل فحقد ذلك عليه مضمومًا إلى حقده عليه القديم لأنه كان يغلظ عليه فى حياة الواثق تقربًا إليه، وكان ابن الزيات قد صنع تنورًا من حديد فى أيام وزارته وله مسامير محددة إلى داخله يعذب فيه الناس وكان يقول إذا استرحم الرحمة خور فى الطبيعة فلما اعتقله المتوكل أدخله التنور وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ومات فى التنور فوجد قد كتب فى التنور بفحمة:

من له عهد بنو ... ر يرشد الصب إليه
سهرت عيني ونامت ... عين من هنت عليه
رحم الله رحيما ... دلت عيني عليه

توفى سنة ٣٣٣.

ابن الدهان

ناصح الدين أبو محمد سعيد المعروف بابن الدهان النحوى البغدادى شارح كتاب الإيضاح والتكملة وكتاب اللمع لابن جنى وكان يفضل على أبى محمد الجواليقى وابن الخشاب وابن الشجرى المعاصرين له. انتقل إلى الموصل

قاصـدا جنب الوزير جمال الدين الأصـفهانى المعـروف بالجواد وكانت كتـبه ببغداد واستولى الغرق فى تلك السنة على البلد فغرقت كتبه وكان خلف داره مدبغة ففاضت بالغرق إلى بيته فتلفت كتبه بهذا السبب زيادة على تلف الغرق فأرسل من أحـضرها له وكان قـد أفنى عمره فـيها فأشـاروا عليه أن يطيبـها بالبخور ويصلح ما أمكنه فيها فبـخرها باللاذن ولازمها بالبخور إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلا لاذنًا فطلع ذلك إلى رأسه وعـينيه فأحدث له العمى - توفى سنة ٥٦٩.

ابن عطاء

أبو العبـاس أحمد بن مـحمد بن عطاء أحد أئـمة الصوفيـة حدث عن يوسف بن موسى القطان والمفـضل وغيرهمـا كانت له ختـمة يتلوها ١٧ سنة يتدبرها، مات ولم يكملها، أحضر فى أمر الحلاج، وقد كتب الحلاج اعتقاده فسأله الوزير حامد بن العباس عما قاله الحلاج فقال من لا يقول بهذا فهو بلا اعتـقاد فقـال له الوزير ويحك تصوب مـثل هذا الاعتقـاد فقال مـالك ولهذا عليك بما نصبت له مـن أخذ أموال الناس وظلمـهم مالك والكلام مع هؤلاء السادة فأمر الوزير بضـرب شدقيه ونزع خفيه وأن يضرب بهـما رأسه فما زال يفعل به كذلك حتى سال لدم من منخريـه وأمر بسجنه فقيل له أيها الوزير إن العامة تتشـوش بهذا فحمل إلى منزله. قال ابن عطاء اللهم اقـتله أخبث قتلة واقطع يديه ورجليه، فمات ابن عطاء بعد سـبعة أيام سنة ٣٠٩ وقتل الحلاج قبله بعد أن ضرب نحوًا من ألف سوط وقطعت يداه ورجلاه ثم أحرقت جثته بالنار ونصبت يداه ورجـلاه ورأسه أيامًا على الجسـر، وكان ذلك لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٠٩ ثـم مات الوزير مثل ما دعا عليـه ابن عطاء مقطوع اليدين والرجلين مقتولا.

ابن شنبود

المقرى محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت أبو الحسين المقرى المعروف بابن شنبود. روى عن أبى مسلم وبشر بن موسى وخلف وكان يختار حروفًا أنكرها أهل زمانه عليه وصنف أبو بكر بن الأنبارى محمد بن القاسم الحافظ الذى كان يحفظ فى كل جمعة عشرة آلاف ورقة كتابًا فى الرد عليه. كان أبو بكر المذكور من أعلم الناس بالنحو والأدب، وكان لا يأكل إلا البقالى ولا يشرب ماء إلا قريب العصر مراعاة لحفظه عقد لابن شنبود مجلس فى دار الوزير أبى على محمد بن مقلة وادعى عليه بالحروف التى كان يقرؤها فأقر بالبعض فضربه الوزير أبو على بالدرة على رأسه واستتيب فدعا على ابن مقلة فلم يفلح بعد ذلك - وتوفى سنة ٣٢٨.

ابن مقلة

الوزير أحد المشاهير الكتاب محمد بن على بن الحسين بن عبد الله أبو على المعروف بابن مقلة الوزير كان له بستان كبير جدًا وعليه جميعه شبكة من إبريسم وفيه من الطيور والقمارى والهزار والطواويس شىء كثير وفيه من الغزلان وبقر الوحش وحميره والنعام والأيل شىء كثير أيضًا وولى الوزارة لثلاثة من الخلفاء المقتدر والقاهر والراضى وبنى له دارًا فجمع عند بنائها خلق كثير من المنجمين فاتفقوا على أن تبنى فى الوقت الفلانى فأس جدرانها بين العشاءين كما أشاروا فما لبث بعد استتمامها إلا يسيرًا وقد أنشد فيه بعض الشعراء:

قل لابن مقلة لا تكن عجلا ... واصبر فإنك فى أضغاث أحلام

تبنى أنقاض دور الناس مجتهدًا ... دارًا ستنقض أيضًا بعد أيام

ما زلت تختار سعداً تطلبن لها فلم يوف بها من نحس بهرام

إن القرآن وبطليموس ما اجتمعا في حال نقض ولا في حال إبرام

ثم عزل عن وزارته وأحرقت داره وانقلعت أشجاره وقطعت يده ثم قطع لسانه وأغرم ألف ألف دينار ثم سجن وحده مع الكبر والضعف والضرورة وكان يستقي بنفسه من بير عميق يدلي الحبل بيده اليسرى ويمسكه بفيه وقاسى جهداً جهيداً حتى مات في الحبس سنة ٣٢٨ ومن نظمه وهو يبكي على يده:

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً فإن البعض من بعض قريب

والنكبات كثيرة لا تحصى وفيما ذكرناه مقنع فإن الكتاب كله أنموذج ومسودة في بابه والله تعالى أعلم.